تفسير عبد الحميد بن باديس
منهجه وخصائصه

Tafsīr Abdel Hamid ben Badis: Methodology and Characteristic Features

Tafsīr Abdel Hamid ben Badis: Ciri-ciri Metodologi Dan Karakteristik

باي زكوب عبد العالي*

ملخّص

عبد الحميد بن باديس أحد العلماء الجزائريين البارزين في الاهتمام بالإصلاح الاجتماعي الذي كان حافزًا له للقيام بتفسير عصريّ لآيات قرآنية مختارة، هادفة إلى كل فئات، وطبقات المجتمع الجزائري يومئذ، فقد رأى ببصيرته الثاقبة أنه لا مخرج للمسلمين من مأزقهم إلاّ بأوبتهم إلى هداية القرآن الكريم، والاستقامة على منهجه في الإصلاح والتغيير. ويهدف هذا البحث إلى تحليل منهج ذلك العالم في تفسير تلك الآيات القرآنية مستعينا بالمنهج الوصفي والتحليلي والاستقرائي.

الكلمات الرئيسية: القرآن، المنهج، الأسلوب، الخصائص، الإصلاح الاجتماعي، عبد الحميد بن باديس.

Abstract

Abdel-Hamid Ben Badis is one of the prominent Algerian scholars interested in social reforms. He contributed to the social reform by undertaking modern interpretations of the selected verses of the Qur'an, and by doing so he

* طالب دكتوراه وأستاذ جزئي في الجامعة الإسلامية العالمية الماليزية.

addressed all groups and classes of Algerian society at that time. He found by his great insight that there was no way out for Muslims from their predicament except by returning to the guidance of the Qur'an and holding steadfastly the Qur'anic approach for reformation and change. This research aims to analyze by using descriptive, analytical and inductive methods, the approach of Ben Badis which he used in interpreting the verses of the Qur'an.

Key Words: The Qur'an, Methodology, Social Reform, Characteristic, style, Abdel-Hamid Ben Badis.

Abstrak

Abdel-Hamid Ben Badis adalah salah satu daripada ulama terkemuka di Algeria yang berminat terhadap pembaharuan sosial. Beliau memberi sumbangan terhadap pembaharuan sosial dengan mengusahkan tafsiran moden ayat-ayat al-Quran yang terpilih, dan dengan berbuat demikian, beliau menujukannya kepada semua kumpulan dan golongan masyarakat Algeria pada masa itu. Beliau menemui, melalui pandangan bernasnya bahawa tidak ada jalan keluar untuk umat Islam dari kesusahan mereka kecuali jika mereka kembali kepada bimbingan al-Quran dan berpegang teguh kepada pendekatan al-Quran untuk reformasi dan perubahan. Oleh itu, kajian ini bertujuan untuk menganalisis, dengan menggunakan kaedah deskriptif, analisis dan induktif, satu pendekatan yang diguna oleh Ben Badis dalam pentafsiran ayat-ayat al-Quran.

Kata Kunci: Kata Kunci: al-Quran, Metodologi, Reformasi Sosial, Ciri-ciri, Gaya, Abdel-Hamid Ben Badis.

المقدمة

الحمد لله على نعمائه، والصلاة والسّلام على خير أنبيائه وبعد،

فقد كانت المرحلة التي عاش فيها عبد الحميد بن باديس إبَّان الاحتلال الفرنسي الغاشم توصف بأصعب المراحل في تاريخ الجزائر القديم والحديث، حيث تقهقرت فيها الجزائر في جميع المجالات، إضافة إلى بعد عموم النّاس عن تعاليم دينهم. فهم من ناحية ينظرون بعين الإعجاب إلى مدنية فرنسا وما فيها من عِزٍّ وسيادة، وتقدّم علمي وعِمراني مما يدفعهم إلى تقليدها في كل شيء حتى سيّئاتها، وينظرون بعين الازدراء إلى كل شيء عند المسلمين حتى أعزّ عزيز مما يدفعهم إلى ترك العمل بالإسلام كمنهج حياة من ناحية أخرى. وقد فرض هذا الظَّرف الصَّعب على ابن باديس أن يسلك طريق أجداده وهو طلب العلم حتّى يسهم في إصلاح الجزائر وإعادة ثقة الناس بدينهم وثقافتهم وحضارتهم، والأخذ بأيديهم إلى الطريق الأقوم، وبالفعل فقد تحقّق أمل ابن باديس عندما ارتحل إلى المشرق والمغرب العربي طالباً للعلم النّافع والصالح لمعالجة أدواء قومه.

استطاع ابن باديس بعد خمس سنين قضاها خارج الجزائر أن يضع المنهج، ويحدّد الأهداف، وينظّم الرّجال، ويُعِدَّ العُدّة لمواجهة الاحتلال الفرنسي من عدّة جبهات كلّها تصبُّ في تعليم الإسلام والعربيّة، وتثبيت العروبة والهُويّة، ومحاربة الجهل والأمّيّة.

وفي الحقيقة، فقد رأى ابن باديس مع صديقه المقرّب البشير الإبراهيمي عن قناعة، وبصيرة ثاقبة، ودراسة دامت لياليَ وأيّاماً أن الحلّ يكمن في تربية جيل قرآنيّ ينهض بالجزائر دِيناً ودُنياً، وأنّ الطريقة المُثلى في تربية هذا الجيل هي: تربيّتهم على فكرة صحيحة، وجعل قلوبهم معلّقة بالقرآن والمساجد، والحرص على غرس الفضائل في نفوسهم، ولا يُشترَط في ذلك التوسّع في العلم الذي لا فائدة ترجى من ورائه.

وقد كان لابن باديس إيماناً عميقاً بأنّ العمل التفسيري هو أفضل الطرق وأخصرها إلى التغيير والإصلاح والتجديد.

حياة ابن باديس وعصره:

1. حياته:

هو الإمام المصلح عبد الحميد بن محمد المصطفى بن مكي بن باديس، ينتهي نسبه إلى المعزّ بن باديس الصّنهاجي مؤسس الدّولة الصنهاجية التي حكمت مملكة القيروان في شمال إفريقيا بعد دولة الأغالبة ودولة الفاطميين. ولد سنة 1889م في الجزائر بمدينة قسنطينة تحديدا، ونشأ بها، وتلقّى مبادئ العلوم، والتحق بجامع الزيتونة، ولما تخرج سافر لزيارة البلاد الشرقية، ولما عاد إلى وطنه اشتغل بالحركة الوطنية والدّفاع عن الجزائر، وعن اللّغة العربية، ومحاربة الاستعمار الفرنسي، واشتغل بالعلوم الدينية، والصحافة، والتحرير في الصحف، وشارك في تأسيس جريدة النّجاح، وفي سنة 1926م أنشأ جريدة المنتقد، وتولى رئاسة تحريرها، ولمّا عطّلتها الحكومة أصدر مجلة الشّهاب، وأصدر أيضاً صحفاً أخرى: الشريعة، والسنة المحمدية، والصراط، وكان في كتاباته وخطبه يعتبر الدّفاع عن الوطن قبل كل شيء، والتحرّر من الاستعمار، وإصلاح القضاء الإسلامي، وعدم خضوعه للقضاء الفرنسي. وفي سنة 1931م أسس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وانتُخِبَ رئيساً لها، واشتغل بتدريس تفسير القرآن الكريم والعلوم بالجامع الأخضر. ولما أتمّ التفسير أقيمت بمناسبة ختمه احتفالات كبيرة سنة 1938م حضرها ألوف من مختلف المدن الجزائرية، وتخرّجت عليه طبقة من العلماء والأدباء فكانوا روّاد النّهضة الجزائرية الحديثة في العلم، والأدب، والوطنية. توفي سنة 1940م في الجزائر[1].

---

[1] انظر: مجاهد، زكي محمد، **الأعلام الشرقية في المائة الرابعة عشرة الهجرية**، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط2، 1994م)، ج3، ص 1039.

2. عصره:

شهد عصر ابن باديس تحكّم ثقافة المستعمر الفرنسي في الجزائر، وتأثر بعض النّخبة من أبناء الجزائر بها، وكذا سيطرة الطرق الصوفية على الفكر الإسلامي سيطرة واسعة مما أدّى إلى انتشار البدع والخرافات والاعتقادات الواهية. هذه الحالة السيّئة أقلقت ضمير العلماءالمصلحين في الجزائر وهذا ما عبّر عنه الشيخ محمد بن مصطفى بن الخوجة (ت 1917م) في قوله:

"فمن لكتاب الله يكشف سرّه *** ويشرحه وفق الفنون الحواضر"[2].

فقد كان هؤلاء المصلحون يدركون أنّ أفضل طريق لإخراج الأمّة الجزائرية من ظلمات الجهل والوهم والخرافة إلى نور الهداية والتوحيد هو تفسير كتاب الله عز وجل وفق مقتضيات العصر الحديث حتى يسهم في معالجة القضايا الفكرية والشرعية التي ابتليت بها الأمة الإسلامية على العموم، والشعب الجزائري على الخصوص. وقد حقّق الله رغبتهم هذه عندما شرع ابن باديس في تفسير القرآن الكريم تفسيراً شفوياً للناس في مسجد قسنطينة ابتداء من سنة (1913م)، وعمره يومئذ أربع وعشرون سنة. وفي سنة (1925م) أصدر ابن باديس مجلة الشهاب الأسبوعية التي تحوّلت ابتداء من سنة (1929م) إلى مجلّة شهرية. هنا بدأ ابن باديس يحرّر بقلمه تفسير بعض الآيات من القرآن الكريم، ومن ثمّ ينشرها في هذه المجلة أملاً منه أن يسهم في نهضة الشعب الجزائري فكراً وعقيدةً وسلوكاً. وقد سلك ابن باديس في تفسيره لكتاب الله تعالى طريقتين: الأولى شفهيّة والثانية تحريريّة.

---

[2] رضا، **تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده**، (مصر: مطبعة المنار, ط1)، ج3، 350.

وقد أتمّ تفسيره الشفويّ عام (1938م) [3]. يقول الشيخ الإبراهيمي: "أتم الله نعمته على القطر الجزائري بختم الأستاذ عبد الحميد بن باديس لتفسير الكتاب الكريم درسا على الطريقة السلفية. وكان إكماله إياه على هذه الطريقة في خمس وعشرين سنة متواليات مفخرة مدخرة لهذا القطر"[4]. وعلى إثر هذا الختم أقام رجال جمعية العلماء حفلاً تكريميّاً بهيجاً، وذلك تقديراً لجهود ابن باديس في تفسير القرآن الكريم لمدة نيّف وعشرين سنة، وبهذه المناسبة الكريمة يقول البشير الإبراهيمي: "هذا اليوم الذي يختم فيه إمام سلفي تفسير كتاب الله تفسيراً سلفياً ليرجع المسلمون إلى فهمه فهماً سلفياً، في وقت طغت فيه المادة على الروح ولعب فيه الهوى بالفكر، وهفت فيه العاطفة بالعقل، ودخلت فيه على المسلم دخائل الزيغ في عقائده وأخلاقه وأفكاره"[5].

أما تفسيره المدوّن فلم يُتمَّه، وهو عبارة عن مجموعة دروس في تفسير آيات متفرقة ومقصودة من سور المائدة، ويوسف، والنّحل، والإسراء، ومريم، وطه، والأنبياء، والحجّ، والمؤمنون، والنّور، والفرقان، والنّمل، والأحزاب، ويس، والذّاريات، والمُعوّذتين، إضافة إلى تفسيرٍ موضوعيٍّ عن: "العرب في القرآن"، نشرها ابن باديس كافتتاحيات لمجلة الشهاب الشهرية وكان يسميها **"مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير"**، وأعاد نشرها وعلّق عليها الأستاذان محمد الصالح رمضان الجزائري وتوفيق محمد شاهين المصري في مجلد واحد فقط، عدد صفحاته أربعمائة من الحجم المتوسّط[6].

---

[3] ومن الموافقات أن تعادل مدة تفسير ابن باديس للقرآن الكريم فترة نزول الوحي على النبيّ ﷺ.

[4] الإبراهيمي، **آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي**، (مصر: مطبعة المنار, ط1)، ج1، ص318.

[5] المصدر السابق، ج1، ص362.

[6] ابن باديس، عبد الحميد، **في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، جمع وترتيب: توفيق محمد شاهين، محمد الصالح رمضان، تحقيق: أحمد شمس الدّين، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1995م).

قال البشير الإبراهيمي وهو يتحسّر على عدم تدوين تفسير ابن باديس: "لم يكتب الأخ الصديق أماليه في التفسير، و لم يكتب تلامذته الكثيرون شيئا منها. وضاع على الأمة كنز علم لا يقوّم بمال، ولا يعوّض بحال. ومات فمات علم التفسير وماتت "طريقة ابن باديس" في التفسير. ولكن الله تعالى أبى إلا أن يذيع فضله وعلمه. فألهمه كتابة مجالس معدودة من تلك الدروس، وكان ينشرها فواتح لأعداد مجلة "الشهاب" ويسميها "مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير "، وهي نموذج صادق من فهمه للقرآن وتفسيره له، كما أنها نموذج من أسلوبه الكتابي"[7].

وأعتقد أنّ عدم كتابة ابن باديس لتفسير كامل يعود إلى ما يراه ابن باديس نفسه في أن المفسرين الأقدمين قد سدّوا هذا الدَّين عن الأمّة، لهذا فلا حاجة عنده إلى إعادة كتابة تفسير كامل لكونه حسب رأيه مشغلة عن العمل المقدّم.

منهج ابن باديس وأسلوبه في التفسير:

1. منهجه في التفسير:

لقد كان ابن باديس حريصاً على تبليغ رسالة القرآن بلغة عصرية هادفة إلى كل فئات وطبقات المجتمع الجزائري وقتذاك. وكان هدفه الرئيس من تفسير كتاب الله عز وجل هو تفهيم جمهور المسلمين معاني القرآن الكريم ليهتدوا بهديه وليتأدبوا بآدابه وليتفقهوا في أسراره حتى يتكوّن منهم جيلاً ربانيّاً يسهم في بناء الجزائر ماديّاً وثقافياً. قال ابن باديس: " فإننا -والحمد لله- نربّي تلامذتنا على القرآن من أوّل يوم، ونوجّه نفوسهم إلى القرآن في كل يوم، وغايتنا التي ستتحقق أن يكوّن القرآن منهم رجالاً كرجال سلفهم، وعلى هؤلاء الرجال القرآنيين تعلّق هذه الأمّة آمالها، وفي سبيل تكوينهم تلتقي جهودنا، وجهودهم"[8]. نستشف من هذا القول أنّ ابن باديس رحمه

---

[7] المرجع السابق، ص 21.

[8] الطالبي، **ابن باديس حياته وآثاره**، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 1968م)، ج2، ص 142.

الله كان يخطّط لإعداد الجيل المنشود الذي يُنتَظر منه أن يحقّق آمال الأمّة المتمثلة في محاربة الجهل والخرافات، وزعزعة أركان الاستعمار الذي طال عمره في الجزائر.

والآن نبدأ بذكر الخطوط العريضة لمنهجه في التفسير، وهي موزّعة في النّقاط الآتية:

1- كان ابن باديس يعتمد في تفسيره على بيان القرآن بالقرآن حتى ينجلي المعنى ويزول الشك والغموض. وقد صرّح ابن باديس إيمانه بهذا العنصر المنهجي عند تفسيره لقوله تعالى في سورة الفرقان: (**خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا**) [9] وفي هذه الآية الكريمة يتبادر السؤال إلى الأذهان، وهو من سيتلقى عباد الرحمن بالتحيّة والسلام، يجيب ابن باديس على هذا السؤال قائلاً: "وقد بيّن من يتلقاهم بذلك في قوله تعالى: (**وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ**) [10] فالملائكة هم الذين يتلقونهم في السلام، والدعاء لهم بالطيب، وهو مما يدخل في التحية"[11]. وبعد أن ساق ابن باديس هذا المثال التطبيقي لمبدأ بيان القرآن للقرآن يسجّل ما نصه: "وما أكثر ما تجد في القرآن (أي بيان القرآن للقرآن)، فاجعله من بالك تهتد إن شاء الله إليه"[12]. وعلى سبيل المثال أيضاً قوله تعالى: (**مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا**)[13]، قال الأستاذ: "ونظيرها أيضاً آية: (**مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا**

---

[9] الفرقان: [76].
[10] الزمر: [73].
[11] ابن باديس، **في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، ص 243.
[12] المرجع السابق، ص 243.
[13] الإسراء: [18- 19].

وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) [14]"[15].

2- أيضاً كان ابن باديس يستمد علم التفسير من علم القراءات الصحيحة لبيان مزيد من معاني القرآن، ولأن اختلاف وجوه القراءات في ألفاظ القرآن يكثّر المعاني في الآية الواحدة وبالتالي الخروج بمعنًى جديد للآية عند الجمع بين القراءات المختلفة. ومثال ذلك قوله تعالى في آية الوضوء: (**وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ**) [16]، قال ابن باديس بمناسبة مجيء (**وَأَرْجُلَكُمْ**) بقراءتين : "بالنّصب عطفاً على الوجه فيفيد غسل الأرجل، وتلك هي الحالة الأصيلة العامّة. وبالخفض عطفاً على الرؤوس فيفيد مسح الأرجل وتلك هي الرخصة عند لبس الخفاف"[17].

3- كان يلجأ بعد ذلك إلى بيان القرآن الكريم بسنة رسول الله ﷺ الصحيحة. وقد صرّح إلى أنّه: "ما أحسن التفسير عندما تعضده الأحاديث الصحيحة"[18]، ويقول أيضاً: "عندما يختلف عليك الدعاة، الذين يدعي كل منهم أنّه يدعوك إلى الله تعالى، فانظر: من يدعوك بالقرآن إلى القرآن، ومثله ما صح من السنّة لأنّها تفسيره وبيانه، فاتّبعه لأنّه هو المتبع للنبيّ ﷺ في دعوته وجهاده بالقرآن"[19]. لأجل ذلك يلاحظ أنّه كان يكثر من إيراد الأحاديث التي رواها البخاري ومسلم. ونمثّل لهذا في قوله تعالى: (**وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا**

---

[14] هود: [15- 16].
[15] ابن باديس، **في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، ص 50.
[16] المائدة: [6].
[17] ابن باديس، **في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، ص 230.
[18] المرجع السابق، ص 187.
[19] المرجع نفسه، الآية: 62 من سورة الفرقان، ص 187.

جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) [20]، وقد أورد في تفسيره لهتين الآيتين عدّة أحاديث منها: ما رواه البخاري[21] ومسلم[22] عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "**ألا أخبركم بأكبر الكبائر**"؟ قلنا: بلى يا رسول الله. قال: "**الإشراك بالله وعقوق الوالدين**"[23]. ويرى الشيخ ابن باديس أنّ السنّة النبوية والقرآن لا يتعارضان ولهذا يردّ خبر الواحد إذا عارض القطعيّ من القرآن لأنه يفيد الظنّ فقط وهو قابل للتأويل. ويستدلّ ابن باديس على ذلك بأن أهل الفترة ناجون من عذاب الله لقوله تعالى: **(وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً)** [24] ولا يُستثنَى من ذلك إلا من جاء فيهم نص ثابت خاص كعمرو بن لحي أوّل من سيّب السوائب، وبدّل في شريعة إبراهيم وغيّر، وحلل للعرب وحرّم. ثم يخلص الشيخ من هذه الآية وغيرها من الآيات التي جاءت بنفس المعنى على أنّ أبوي النبي ﷺ ناجيان بعموم هذه الأدلة، ولا يعارض هذه الآيات القواطع ما رواه مسلم عن أنس رضي الله عنه: أن رجلاً قال للنبيّ ﷺ: يا رسول الله، أين أبي؟ قال: "**في النار**". فلمّا قفّى الرجل دعاه، فقال: "**إن أبي وأباك في النار**"[25] ؛ لأنه خبر آحاد، فلا يعارض القواطع، وهو قابل للتأويل بحمل الأب على العمّ مجازاً[26].

---

[20] الإسراء: [23- 24].

[21] البخاري، **صحيح البخاري**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط2، 2002م)، كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور، حـ 2654، مج2، ص 171.

[22] مسلم، **صحيح مسلم**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1998م)، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، حـ 143، مج1، ص 91.

[23] ابن باديس، **في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، ص 66.

[24] الإسراء: [15].

[25] مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب الإيمان، باب بيان أن من مات على الكفر فهو في النار ولا تناله شفاعة ولا تنفعه قرابة المقرّبين، حـ347، مج1، ص 162.

[26] انظر: ابن باديس، **في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، ص 297.

4- كان يستند إلى أسباب الترول لتفسير مبهمات القرآن وبيان معانيه ودفع المتشابهات. وعلى سبيل المثال عند تفسيره لقوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿**وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ**﴾[27] نقل حديثاً من صحيح مسلم عن عبد بن مسعود، ما نصّه: (قال رجل: يا رسول الله، أي الذنب أكبر عند الله؟. قال: أن تدعو لله ندّاً وهو خلقك. قال: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك مخافة من أن يطعم معك. قال: قلت: ثم أيّ؟ قال: أن تزني حليلة جارك. فأنزل الله عز وجل تصديقها: ﴿**وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ** ...﴾ [28]. وعن المطابقة بين الآية وسبب نزولها، يقول ابن باديس: "تواردت الآية والحديث في الإثم الأوّل على شيء واحد، وتواردا أيضاً في الثاني والثالث. إلاّ أن في الحديث ذكر فرد من العام هو شر أفراده وأكبرها إثماً، وفي الآية ذكر العام"[29]. كما كان ابن باديس مهتمّاً أيضاً بتمحيص الروايات الواردة في أسباب الترول أو في فضائل السّور ونحو ذلك، وكان يستغني في ذلك بما صح من الروايات عمّا لم يصح منها، هذا فضلاً عن تخريجها، وعزوها إلى مصادر كتب الحديث المعتمدة. وفي سياق تفسيره للمعوذتين أنكر على من تساهل من المفسرين في اعتبار أن سبب نزول المعوذتين هي قصة سحر النبيّ صلى الله عليه وآله سلم. قال ابن باديس: "وأما ما يذكر في نزولها في قصة النبي ﷺ فإن ذلك لم يصح سبباً لترولها. وإن كان لقصة السحر وصاحبها لبيد بن الأعصم أصل ثابت في الصحيح. وقد تساهل كثير من المفسرين في حشر هذا السبب في

---

[27] الفرقان: [68].

[28] مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده، حـ142، مج1، ص 91.

[29] ابن باديس، **في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، ص 219.

تفسيرهما وفي حشر كثير مما لم يصح في فضائلهما، ولنا فيما صح غنية فيما لم يصح"[30].

5– اهتمامه بعلم المناسبات، والعلاقات بين السور لاستخراج أنواعٍ من الحكم والمعاني التي قد خفيت على من تقدم وتأخر من المفسّرين، قال ابن باديس: " وربط الآيات بوجوه المناسبات"[31]، وبالمناسبة فإن ابن باديس كان يعتقد أن ترتيب المصحف توقيفي، ليس من صنيع جامعي المصاحف[32]. وفي معرض حديثه عن سرّ ختم القرآن بالمعوّذتين، يقول: "ولهاتين السورتين خصوصية غير المناسبات التي يذكرونها في ارتباط بعض السور بالبعض، ويستخرجون منها بالتدبر ما لا يحصى من الأنواع، وهذه الخصوصية هي ختم القرآن بهما"[33]، ثم يضيف: "يستطيع دارس القرآن ومتدبره ومتقلبه، بالذهن المشرق والقريحة الصافية، أن يستخرج من الحكم في هذا الختم أنواعاً"[34]، ثم يعدّد بعد ذلك بعض الحكم، ليختم بالقول أنّ: "المناسبة العامة بين جميع القرآن مرتباً ترتيبه التوقيفي، وبين هاتين السورتين في اتحاد موضعهما"[35]. وأمّا المناسبة الخاصة بين المعوذتين وبين سورة الإخلاص، فهي: أن سورة الإخلاص قد عرّفت الخلق بخالقهم بما فيها من التوحيد والتتريه والتمجيد..، فأنت وقد آمنت وصدقت، وخرجت من سورة الإخلاص متشبعاً بمعانيها، ومنها معنى الصمد تستشعر أنّ العالم كله عجز وقصور، وأنّ خيراته مكدرة بالشرور، وأن لا ملجأ إلا ذلك الفرد الصمد، الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفؤاً أحد،

---

30 المرجع السابق، ص 369.

31 المرجع نفسه، ص 41.

32 انظر: المرجع نفسه، ص 369.

33 المرجع نفسه، ص 369.

34 المرجع نفسه، ص 369.

35 المرجع نفسه، ص 370.

فتجيء المعوذتان بعد الإخلاص مبينتين لذلك الالتجاء الذي هو من تمام التوحيد. ولأجل هذه المناسبة والارتباط جمع بينهنّ في التسمية والتعوّذ وفي قراءة الوتر على حدّ تعبير ابن باديس[36].

يمكن أن نختم هذا المبحث بما يراه الشيخ البشير الإبراهيمي في كلمة قدّم بها تفسير ابن باديس، جاء فيها: "وفهم القرآن يتوقف بعد القريحة الصافية، والذهن النيّر على:

- التعمق في أسرار البيان العربي.
- التفقه لروح السنة المحمدية المبينة لمقاصد القرآن، الشارحة لأغراضه بالقول والعمل.
- الاطلاع الواسع على مفهوم علماء القرون الثلاثة الفاضلة.
- التأمل في سنن الله في الكائنات.
- دراسة ما تنتجه العلوم الاختبارية من كشف لتلك السنن وعجائبها"[37].

وكل هذه المواصفات نراها قد تحققت في دروس ابن باديس التفسيرية، مما أهّله لأن يكون رائداً من روّاد التفسير في العصر الحديث.

6- كان يستند أيضاً إلى بيان القرآن بما نقل عن الصحابة رضوان الله عليهم من طرق صحيحة (ويعم ذلك الأحاديث الموقوفة والمرفوعة) مع الاستدلال بمناقبهم الصحيحة. وعلى سبيل المثال قوله تعالى: **﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾**[38] وفي تفسير هذه الآية يستشهد ابن باديس بحديث موقوف على معاذ رضي الله عنه، ما نصّه: (تكون فتن، فيكثر المال، ويفتح القرآن، حتى يقرأه

[36] انظر: المرجع نفسه، ص 370-371.
[37] المرجع نفسه، ص 17.
[38] الفرقان: [30].

الرجل والمرأة والصغير والكبير، والمنافق والمؤمن، فيقرأه الرجل فلا يتبع، فيقول: والله لأقرأنه علانية، فيقرؤه علانية فلا يتبع. فيتخذ مسجداً ويبتدع كلاماً ليس من كتاب الله، ولا من سنة رسول الله ﷺ، فإياكم وإياه، فإنه بدعة وضلالة)، وبعد سياق ابن باديس لهذا الحديث يعلق عليه قائلاً: "وهذا الحديث وإن كان موقوفاً على معاذ، فهو في حكم المرفوع، لأنه بمغيب المستقبل، وهذا ما كان يعلمه الصحابة رضوان الله عليهم، إلا بتوقيف من النبيّ ﷺ"[39].

7– كان يلجأ ابن باديس أيضاً إلى استمداد علم التفسير من أمّهات التفاسير القديمة التي ذاع صيتها في الآفاق، وكذا إلى كتب الحديث والأحكام والأخلاق التي تعتبر آلة للمفسّر في استنباط المعاني والأحكام الشرعية. قال الأستاذ: "وعمدتنا فيما نرجع إليه من كتب الأئمة:

– تفسير ابن جرير الطبري[40]، الذي يمتاز بالتفاسير النقلية السلفية، وبأسلوبه الترسلي البليغ في بيان معنى الآيات القرآنية، وبترجيحاته لأولى الأقوال عنده بالصواب.

– وتفسير الكشاف[41] الذي يمتاز بذوقه البياني في الأسلوب القرآني، وتطبيقه فنون البلاغة على آيات الكتاب، والتنظير لها بكلام العرب، واستعمالها أفانين الكلام.

– وتفسير أبي حيان الأندلسي[42] الذي يمتاز بتحقيقاته النحوية واللغوية، وتوجيهه للقراءات.

– وتفسير الرازي[43] الذي يمتاز ببحوثه في العلوم الكونية، مما يتعلق بالجماد والنبات والحيوان والإنسان، وفي العلوم الكلامية، ومقالات الفرق، والمناظرة والحجاج في ذلك. إلى

---

39 ابن باديس، **في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، ص 175.

40 وهو المسمّى: **"جامع البيان عن تأويل آي القرآن"**.

41 وهو المسمّى: **"الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل"** لجار الله الزمخشري.

42 وهو المسمّى: **"البحر المحيط"**.

43 وهو المسمّى: **"مفاتيح الغيب"**.

غير هذا مما لابد لنا مراجعته من كتب التفسير والحديث والأحكام[44]، وغيرها مما يقتضيه المقام"[45]. ويمكن أن يفهم من هذا أن ابن باديس قد جمع في تفسيره بين صحيح المنقول وسديد المعقول.

8- عدم استدلال ابن باديس بالإسرائيليات الباطلة التي امتلأت بها كتب التفسير، كروايات كعب الأحبار ووهب بن منبّه، وشيئا مما رواه الحاكم في مستدركه كما صرّح الأئمة المحققون، وكذلك الشأن في الأخبار الواهية والأحاديث الموضوعة. وأما إذا أوردها فإنه يوردها من باب بيان بطلانها وكذبها. ففي سياق تفسيره لسورة النمل، وبالتحديد قصة سليمان عليه السلام، حذر من الإسرائيليات والمبالغات الباطلة فقال: "رويت في عظم ملك سليمان روايات كثيرة ليست على شيء من الصحة، ومعظمها من الإسرائيليات الباطلة التي امتلأت بها كتب التفسير، مما تلقى من غير تثبيت ولا تمحيص، من روايات كعب الأحبار ووهب بن منبه، وروى شيئاً من ذلك الحاكم في مستدركه، وصرّح الذهبي ببطلانه"[46].

9- كان يلجأ ابن باديس في تفسيره إلى تفسير القرآن بالرأي المحمود لبيان معان مكنونة ما لم يخرج هذا الرأي عن ثلاث شروط توزن بها أعمال المفسرين، وهي:

أوّلاً: أن تكون المعاني صحيحة في نفسها.

ثانياً: أن تكون هذه المعاني مأخوذة من التركيب القرآني أخذاً عربيّاً صحيحاً.

---

44 منها على سبيل المثال لا الحصر: **"الإحياء"** للغزاليّ، **"لسان العرب"** لابن منظور، **"إعلام الموقعين"** لابن القيم، **"الشفا"** للقاضي عياض، **"القبس"** لابن العربي، **"النهاية"** لابن الأثير، **"ديوان"** المتنبي، **"المقدمة"** لابن خلدون، **"العواصم من القواصم"** لابن العربي، (...).

45 ابن باديس، **في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، ص 41.

46 المرجع السابق، ص 272.

ثالثاً: أن يكون لهذه المعاني ما يشهد لها من أدلة الشرع[47].

قال ابن باديس: "وكل ما استجمع هذه الشروط الثلاثة فهو صحيح مقبول"[48]. وفي سياق تفسيره لسورة النمل وتحديداً عند سؤال سليمان عليه السلام عن حال نفسه فقال: ما لي لا أرى الهدهد؟ نقل ابن باديس عن الإمام ابن العربي كلاماً عن الإمام عبد الكريم بن هوازن القشيري شيخ الصوفية في زمانه، وقد عدّه ابن باديس كلاماً نفيساً، قال عن ذلك: "مثل هذه المعاني الدقيقة القرآنية الجليلة النفيسة من مثل هذا الإمام الجليل من أجلّ علوم القرآن وذخائره"[49]. وفي السياق نفسه، أطلق ابن باديس صيحة نذير على التفاسير التي لم تستجمع هذه الشروط الثلاثة فقال: "أمّا ما لم تتوفر فيه الشروط المذكورة، وخصوصاً الأول والثاني؛ فهو الذي لا يجوز في تفسير كلام الله، وهو كثير في التفاسير المنسوبة لبعض الصوفية: كتفسير ابن عبد الرحمن السلمي من المتقدمين، والتفسير المنسوب لابن عربي من المتأخرين"[50].

ويضيف ابن باديس إلى هذه الشروط الثلاثة شرطاً رابعاً في سياق حديثه عن اللفظ الذي افتتحت به سورة يس فقال: "ويكون عمله في كتاب الله هو التفهم والتدبّر لآياته، والتفطّن لتنبيهاته، ووجوه دلالته، واستثارة علومه من منطوقه ومفهومه، على ما دلت عليه لغة العرب في منظومها ومنثورها، وما جاء من التفاسير المأثورة، وما نقل من مفهوم الأئمة الموثوق بعلمهم وأمانتهم، المشهود لهم بذلك من أمثالهم"[51].

---

[47] انظر: المرجع نفسه، ص 267.

[48] المرجع نفسه، ص 267.

[49] المرجع نفسه، ص 267.

[50] المرجع نفسه، ص 268.

[51] المرجع نفسه، ص 286.

كما لا يخفى علينا أن ابن باديس كان حاسماً منذ البداية في تفسيره للآيات المتعلقة بمسائل الغيب بشكل عام، حيث كان يقف عندها، ويرى أن الأسلم في ذلك هو تفويض أمرها إلى الله تعالى، ولا يعني ذلك إيقافاً لإعمال العقل أو الرأي، وإنما كما يقول ابن باديس: "فكان من لطف الله بالإنسان أن جعل لعقله حدّاً يقف عنده، وينتهي إليه، ليسلم من هذا الخطر: خطر الإعجاب بالعقل"[52]. ثم يضيف قائلاً: "حتى إذا انتهى إلى مشكل استغلق عليه اعترف بعجزه، و لم يرتكب من الأوهام والفروض البعيدة ما يكسو الحقيقة ظلمة، ويوقع الباحث من بعده في ضلالة أو حيرة. فكثيراً ما كانت الفروض الوهمية الموضوعة موضع اليقينيات، سبباً في صد العقول عن النظر، وطول أمد الخطأ والجهل"[53]. ويضاف إلى التفسير بالرأي أيضاً الاستفادة مما تنتجه الاكتشافات والبحوث العلمية فيما يتعلق بسنن الله وعجائبها ولكن دون التوسع في ذلك إلى حدّ الإفراط، وفي سياق تفسيره لقوله تعالى في سورة الإسراء: (**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً**)[54] يقول: "واتفق علماء الفلك في العصر الحديث بعد الاكتشافات والبحوث العلمية أن جرم القمر كالأرض، كان منذ أحقاب طويلة وملايين السنين شديد الحمو والحرارة ثم برد، فكانت إضاءته في أزمان حموه وزالت لما برد"[55].

10- كان يلجأ إلى استمداد علم التفسير من معاجم اللغة، ودواوين العرب وما حوته من الأخبار والأمثال والأشعار ونكت البلاغة، وذلك بمعرفة مقاصد العرب

---

[52] المرجع نفسه، ص 284.

[53] ابن باديس، **في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، ص 285.

[54] الإسراء: [12].

[55] ابن عاشور، محمد الطاهر، **مقدمات التحرير والتنوير**، تحقيق: محمد الطاهر الميساوي، (ماليزيا، دار التجديد، ط1، 2006م)، ص66.

من كلامهم وأدب لغتهم لأجل بيان ما خفي فهمه في القرآن الكريم. قال ابن باديس: "على عادتنا في تفسير الألفاظ بأرجح معانيها اللغوية، وحمل التراكيب على أبلغ أساليبها البيانية"[56]. وعلى سبيل المثال عند تفسيره لقوله تعالى في سورة الإسراء: **(وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولِئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً)**[57]، قال في معنى القفو: "فالقفو: اتباع عن غير علم، فهو أخص من مطلق الاتباع، ولذلك اختيرت مادّته هنا. ولكونه اتباعا بغير علم، جاء في كلام العرب بمعنى قول الباطل قال جرير:

(وطال حِذاري خِيفةَ البَيْنِ والنَّوى *** وأُحدوثةٌ من كاشحٍ متقوّفِ[58]) "[59].

11- اهتمامه بالدقائق البلاغية، ووجوه الإعجاز إن وجدت لأجل تعزيز معاني آي القرآن الكريم، أمّا عن الدقائق البلاغية، فعلى سبيل المثال عند تفسيره لقوله تعالى في سورة الناس: **(مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ)** [60] يقول: "ومن دقائق القرآن ولطائفه في البلاغة، أنّه يقدّم أوّلاً الاسمين المتلازمين في آية، لسر من أسرار البلاغة التي يقتضيها ذلك المقام، ولا يؤخّر ذلك المقدّم في آية أخرى، لسرّ آخر: فيقدّم السماء على الأرض في مقام، ويؤخّرها عليها في مقام آخر. ومن هذا الباب تقديم الإنس على الجنّ في آية "الأنعام"[61]، لأنّ معرض الكلام في عداوتهم للأنبياء، وهي من الإنس أظهر، ودواعيها من التكذيب والإيذاء أوضح، وفي آية "الناس" قدّم الجِنّة على النّاس، لأنّ الحديث عن الوسوسة، وهي من شياطين الجنّ أخفى وأدقّ، وإن كانت من شياطين

---

[56] ابن باديس، **في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، ص 41.

[57] الإسراء: [36].

[58] إيليا الحاوي، **شرح ديوان جرير**، (بيروت: دار الكتب اللبناني، ط1، 1986م)، ص 458. وفي أصل البيت (غربة) موضع (خيفة)، و(يتقوّفُ) موضع (متقوّفِ).

[59] ابن باديس، **في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، ص 99.

[60] الناس: [6].

[61] قوله تعالى: **(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ)**، [الأنعام: 112].

الإنس أعظم وأخطر وأدهى وأَمَرّ: فشيطان الجنّ يستخدم شيطان الإنس للشرّ والإفساد، فيربى عليه ويكون شرّاً منه، لأنّه بمثابة السلاح الذي يفتك به؛ وربّ كلمة واحدة صغيرة يوحيها جنّيّ لإنسيّ، ويوسوس إليه بتنفيذها، فتتولّد منها فتن، ويتمادى شرّها من قرن إلى قرن ومن جيل إلى جيل"[62]؛ وأمّا عن وجوه الإعجاز، ففي قوله تعالى: **﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾** [63]، يقول: "من محاسن هذه الشريعة المطهرة، أنّها نزلت بالتدريج المناسب .. وما كان ذلك ليأتي إلا بتفريق الآيات في الإنزال .. وما كان هذا كله ليأتي لولا تفريق الآيات في التنزيل، وترتيلها وتنضيدها هذا الترتيل العجيب، وهذا التنضيد الغريب، الذي بلغ الغاية من الحسن والمنفعة، حتى أنّه ليصحّ أن يعدّ وحده وجهاً من وجوه الإعجاز"[64].

2. أسلوبه في التفسير

كان أسلوب ابن باديس في التفسير سهلاً ممتنعاً، خال من السجع الطويل، والجدليات العنيفة، والآراء المضطربة، والأقوال المتباينة. ويوصف أسلوبه في التفسير بالوضوح التامّ. خصوصاً وأنَّ غرضه من التفسير كان الإصلاح العام بكل أشكاله. فكان عندما يفسر القرآن الكريم يراعي فيه أحوال الحاضر وأمراض السامعين مع تعيين توجيه الخطاب دون التحليق بالسامعين والقرّاء بعيداً عن مقتضيات وحاجيات العصر، وكان إذا وجد معارضة من أهل الباطل ردّها برفق ووقار، دون فحش ولا فظاظة مبيّنا للناس خطر قولهم وسوء مقصدهم حتى لا يقعوا فيما لا يرضي الله عز وجلّ.

---

[62] ابن باديس، **في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، ص 385.

[63] الفرقان: [32].

[64] ابن باديس، **في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، ص 181.

أيضاً كان ينتخب آية أو آيات متعددة، ثم يذكر لها عنواناً يناسبها، وبعد ذلك يبدأ في التمهيد للآيات التي اختارها ذاكراً فضلها، وسبب نزولها، والمناسبة إن وجدت. والشروع بعدها بتفسير لغوي موجز، يحرص فيه على تحديد المفهوم اللغوي والاصطلاحي للكلمات والمفاهيم الرئيسة الواردة في المقطع الذي اختاره. ثم ينتقل بعد ذلك إلى ذكر المعنى الإجمالي للمقطع الذي يشرحه، وإذا كان للمقطع أكثر من وجه للإعراب فإنه يورد معناه حسب هذه الوجوه. وبعد ذلك تلي هذا المعنى الإجمالي عناوين فرعية خاصة بكل موضوع من مواضوعات الآيات، وفي هذه العناوين الفرعية بالذّات يشرع ابن باديس بربط هداية القرآن بمجتمعه مع ما يعاني به من مشكلات وأمراض. وهكذا نجد على سبيل المثال في قوله تعالى: (**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ، يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**)[65].

ويستخلص ابن باديس من هذا المقطع ستة عشر عنواناً فرعيّاً كما يأتي[66]:

1. تمهيد، 2. أدب واقتداء، 3. بيانه لهم حجته عليهم، 4. تمثيل، 5. أدب واقتداء، 6. نعمة الإظهار والبيان بالرسول والقرآن، 7. محمد ﷺ والقرآن نور وبيان، 8. استفادة، 9. اقتداء، 10. الهداية نوعان، ى11. بماذا تكون الهداية، 12. لمن تكون الهداية، 13. إلى ماذا تكون الهداية، 14. الإخراج من حالات الحيرة إلى حالة الاطمئنان، 15. الإسلام هو السبيل الجامع العام، 16. الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسول الله لازم دائماً.

---

[65] المائدة: [15، 16].

[66] انظر: ابن باديس، **في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، ص 327.

وأحيانا يلي هذا التمهيد عناوين فرعية أخرى، وذلك حسب الآيات التي يتعرض لتفسيرها، ومن بين هذه العناوين: المعنى، الأحكام، استنتاج، التطبيق أو الفائدة العملية، تحذير وإرشاد، عبرة وتحذير، وأحياناً أخرى يقسّم تفسيره إلى مباحث أو فصول أو مسائل على عادة فخر الدين الرازي في تفسيره. وفي الأخير يختم تفسيره بدعاء جميل يناسب المقام.

خصائص تفسير ابن باديس:

إنّ خروج ابن باديس من المهنيّة أو الأكاديمية في التفسير التي كان يسير عليها بعض المفسّرين في تفاسيرهم، ودعوته إلى تجاوز الأساليب المدرسية الشكلية ذات الاهتمام الكبير بالألفاظ والعلوم الآلية على حساب فهم الشرائع والأحكام الإلهية، هي التي جعلت تفسيره يمتاز بعدّة خصائص ومميّزات عامّة. قال ابن باديس وهو يرمي باللّوم على أساليب القدماء في التدريس: "فترى الطالب يفني حصة كبيرة من عمره في العلوم الآلية دون أن يكون قد طالع ختمة واحدة في أصغر تفسير، كتفسير الجلالين مثلاً، بل ويصير مدرّساً متصدّراً و لم يفعل ذلك"[67]. ويضيف متعجّباً: "كأنّ التفسير إنّما يقرأ لأجل تطبيق القواعد الآلية، لا لأجل فهم الشرائع والأحكام الإلهية"[68]. إنّ هذا الإصلاح التعليمي[69] المبكّر الذي طالما نادى به ابن باديس، هو

---

[67] ابن باديس، **في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، ص 174.

[68] المرجع السابق، ص 174.

[69] وبهذه المناسبة يرى ابن باديس أنّ إصلاح التعليم هو أساس كل إصلاح، وتالياً فلن يصلح المسلمون حتى يصلح علماؤهم، ولن يصلح العلماء إلاّ إذا صلح تعليمهم، ولن يصلح هذا التعليم إلاّ إذا رجعنا به للتعليم النبويّ". (انظر: الطالبي، **ابن باديس حياته وآثاره**، ج3، ص 217). وهكذا نجد ابن باديس في هذا النّصّ وفي نصوص أخرى يقرّر حقيقة لا مفرّ منها إذا أردنا النجاة والفلاح في الدارين، وهي الرجوع إلى أصول الهداية في الإسلام: إلى كتاب الله وسنّته، والتفقّه فيهما لأجل شرحهما وبيانهما بفهم سليم، والحثّ بعد ذلك إلى عمل مستقيم.

الذي جعله يسلك هذا النّوع من التفسير الذي يدعو إلى ربط هداية القرآن بالمجتمع، بغية الوصول إلى حلول واقعية تليق بمتطلبات الإنسان وحضارته.

ولنذكر الآن أبرز هذه الخصائص التي امتاز بها تفسير ابن باديس:

1– عدم التوسّع في نقل أقوال النحاة، وعلماء البلاغة، وعلماء الشريعة، إلاَّ ما كان منها ضرورياً في بيان معنى الآيات، وكان غرضه من هذا الاقتصاد في التفسير هو ألا يشغل القارئ عن وجوه هداية القرآن الكريم، وعن الإصلاح العام الذي كان هو مقصوده الأوّل.

2– عدم الخوض في بحر المسائل الخلافية التي لا ينبني عليها عمل ولا فائدة علمية، وعدم إدخاله في تفسيره الأساليب المعقدة من تأويلات الجدلية واصطلاحات مذهبية وخلافات جدلية عنيفة ونحو ذلك، مع طرح الآراء المضطربة والأقوال الساقطة.

3– استدلال ابن باديس بمن خالفه في الرأي إذا أصاب الحق، وتوفرت فيه شروط التفسير كما ذكرنا سابقاً، وهذا مثل استدلاله بكلام الإمام عبد الكريم بن هوازن القشيري شيخ الصوفية في زمانه، وقد عدّه ابن باديس كلاماً نفيساً"[70]. وفي هذا المعنى يقول ابن القيم رحمه الله: "البصير الصادق يضرب في كل غنيمة بسهم، ويعاشر كل طائفة على أحسن ما معها، ولا يتحيّز إلى طائفة، وينأى عن أخرى بالكلية إلا يكون معها شيء من الحق، فهذه طريقة الصادقين"[71].

4– القيام بربط هداية القرآن الكريم بواقع المسلمين ومشاكلهم الفكرية، والسياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، بغية الوصول إلى حلول تتناسب مع مقتضيات وحاجيات مسلمي عصره، وكان ينبّه المسلمين من خلال تفسير القرآن الكريم إلى

---

[70] انظر: ابن باديس، **في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، ص 267.

[71] ابن قيّم الجوزية، أبو عبد الله، **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، (دمشق: مكتبة دار البيان، ط1، 1999م)، مج2، ص 373.

ضرورة نهوض المسلمين من سباتهم واللحاق بركب الحضارة والتقدّم الذي سبقهم إليه الغربيون، وفي الوقت نفسه كان شديد الانتقاد لطبقة العلماء -الحفاظ- الذين تمسّكوا بالجمود والتقليد، وحصروا الإسلام في المساجد والزوايا، وابتعدوا عن الاجتهاد الذي يقتضيه العصر، ولم يقوموا أيضاً بدورهم الفاعل في تذكير المسلمين بضرورة ربط حياتهم بهداية القرآن الكريم، والسنة النبوية الصحيحة، وترك البدع والمنكرات التي أحدثها الناس بمرور الزمان، والابتعاد عن الثقافة الفرنسية التي تقف حجر عثرة في طريقة تطبيق الإسلام الصحيح في كل جوانب الحياة.

أيضاً القيام بكشف الشبهات عن بعض الحقائق التي أساء فهمها الذين لم يؤتوا نصيباً من العلم. يقول ابن باديس في تفسير قوله تعالى: (**وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا**) [72]. "كما يفتن الفرد بالفرد، كذلك تفتن الأمّة بالأمّة: من ذلك أنّنا -معشر الأمّة الإسلامية- قد فُتنّا بغيرنا من أمم الغرب، وفُتنوا هم أيضاً بنا. فنحن ندين بالإسلام وهو دين السعادة الدنيوية والأخروية ولكن حيثما كنّا -إلاّ قليلاً- لسنا سعداء لا في مظاهر تديننا، ولا في أحوال دنيانا. ففي الأولى: نأتي بما يبرأ منه الإسلام، ونصرح بأنّه من صميمه. وفي الثانية: ترانا في حالة من الجهل والفقر والذلّ والاستعباد يرثي لها الجماد. قلّما يرانا الغربيون على هذه الحالة ينفرون من الإسلام، ويسخرون منه، إلا من نظر منهم بعين العلم والإنصاف، فإنه يعرف أن ما نحن عليه هو ضدّ الإسلام. فكنّا فتنة عظيمة عليهم، وحجاباً كثيفاً لهم عن الإسلام. فكنّا -ويا للأسف- فتنة للقوم الظالمين. وهم من ناحيتهم نراهم في عز وسيادة، وتقدم علمي وعمراني، فننظر إلى تلك الناحية منهم فنندفع في تقليدهم في كل شيء،

[72] الفرقان: [20].

حتى معائبهم ومفاسدهم، ونزدري كل شيء عندنا حتى أعزّ عزيز. إلا من نظر بعين العلم فعرف أن كل ما عندهم من خير، هو عندنا في ديننا وتاريخنا"[73].

5- باتباع ابن باديس منهج التفسير التحليلي، يكون قد أسهم في استنباط العظات والعبر، واستخراج القواعد والنّظريات والأسس في التربية والتعليم والإصلاح والاجتماع وسنن الكون، ومن ثمّ تطبيقها على واقع مسلمي عصره، وعلى سبيل المثال عند تفسيره لقوله تعالى: **(وَإِن مَّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِك فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا)**[74]، ويستنبط ابن باديس من هذه الآية السنّة الكونية التي أجرى الله عليها حياة الأمم في هذه الدنيا، ومما نصّه: "الأمم كالأفراد، تمرّ عليها ثلاثة أطوار: طور الشباب، وطور الكهولة، وطور الهرم. فيشمل الطور الأول: نشأتها إلى استجماعها قوّتها ونشاطها، مستعدة للكفاح والتقدم في ميدان الحياة. ويشمل الطور الثاني: ابتداء أخذها بالتقدم والانتشار، وسعة النفوذ، وقوة السلطان إلى استكمالها قوّتها، وبلوغها غاية ما كان لها أن تبلغه من ذلك؛ بما كان فيها من مواهب، وما كان لها من استعداد، ما لديها من أسباب. ويشمل الطور الثالث: ابتداءها في التقهقر والضّعف والانحلال، إلى أن يحل بها الفناء والاضمحلال، إما بانقراضها من عالم الوجود، وإما باندراسها في عالم السيادة والاستقلال"[75]. وأمثلة أخرى كثيرة لا يسع المجال ذكرها.

6- استخدام منهج التفسير النقدي من قبل ابن باديس كان لأجل طرح الأفكار التي روّجها شيوخ الجمود والتقليد مما أسهمت في إفراز إسلام ميّت يعجز عن توفير أبسط ما يحتاجه المسلم في حياته اليومية، فما بالك حفظ دين الأمّة ولغتها.

---

[73] ابن باديس، **في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، ص 167.

[74] الإسراء: [58].

[75] ابن باديس، **في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، ص 122.

7- استخدام ابن باديس منهج التفسير العلمي من جهة أخرى كان لأجل بيان أن القرآن لا يعارض العلم، بل إنّه دعوة للعلم، واستعمال للعقل في إطار ما سمح به الشّرع، والمثال على ذلك تفسير ابن باديس لقوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً**﴾[76]، ومما جاء في تفسيره لهذه الآيات: "الليل: هو الوقت المظلم الذي يغشى جانباً من الكرة الأرضية، عندما تكون الشمس منيرة لجانبها المقابل. والنّهار: هو الوقت الذي يتجلى على الجانب الكرة المقابل للشمس فتضيؤُه بنورها. ولا يزالان هكذا متعاقبين على جوانب هذه الكرة وأمكنتها: يكوِّر الليل على النهار، بأن يحل محلّه في جزء من الكرة –وجزء الكرة مكوَّر- فيكون النهار الحالّ مكوَّراً بحكم تكوُّر المحلّ. وكذلك النهار يكوِّر عليه فيحل محلّه من الكرة، فيكون أيضاً مكوّراً بحكم تكوُّر المحلّ. وإنّما جعلنا تكوير أحدهما على الآخر بحلوله محلّه؛ لأنه لا يمكن تكويره عليه بحلوله عليه نفسه؛ لأنّهما ضدّان لا يجتمعان، وليسا جسمين يحل أحدهما على الآخر"[77]. ثم يستمر ابن باديس في بيان معنى هذه الآية بتعمّق ليصل إلى أنّ هذه الدقة في آيتي الليل والنهار لدليل قاطع على وجود الله تعالى، قال: "فهذا الترتيب والتقدير والتيسير، دليل قاطع على وجود خالق حكيم قدير لطيف خبير"[78].

8- استعمال منهج التفسير الاستدلالي في دروس ابن باديس بدا واضحاً، وقد ذكرنا سابقاً الأدوات التي كان يعتمد عليها ابن باديس في تفسيره، فكان يستدلّ بنصوص القرآن الكريم وعلومه، والسنّة النبوية الصحيحة، وأقاويل السلف والخلف،

---

[76] الإسراء: [12].

[77] ابن باديس، **في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، ص 45.

[78] المرجع السابق، ص 46.

وقواعد اللغة والمنطق والبرهان العقلي، وعلوم الكون والنّفس والاجتماع، ومن ثم يربطها بمجريات وأحداث واقعه البئيس حتى يسهم في الإصلاح والتجديد والتغيير. ونشير هنا إلى مزية لاحظناها في تفسير ابن باديس وهو كثرة استدلالاته بما روي في الصحيحين.

9- الاعتماد على أمّهات المصادر في التفسير، وقد أشار إلى هذه المصادر في خطبته لافتتاح دروس التفسير، ومن هذه المصادر المعتمدة في تفسيره: تفسير الطبري، وتفسير الزمخشري، وتفسير أبو حيان الأندلسي، وتفسير الرازي. ويفهم من هذا أنّ ابن باديس حاول أن يجمع في تفسيره بين الأصول والمناهج التي اعتمد عليها السلف في تفاسيرهم.

يظهر لنا أنّ اعتماد ابن باديس على أمّهات المصادر في التفسير يعود لسببين:

- الأول: هو الاحتراز من الوقوع في الزيغ والزلل عند تفسيره لكتاب الله عز وجل.
- والثاني: هو تعزيز فكرته الإصلاحية التي كان يرمي إليها.

قال ابن باديس: "وإذا نظرنا إلى قصورنا، وخطورة مقام الكلام على كلام الله تعالى، أحجمنا. وإذا رأينا إلى فضل الله، وثقتنا به، وحسن قصدنا – في خدمة كتابه – أقدمنا. وهذا الجانب الكريم أرجح عندنا، فنحن نقدم معتمدين على الله تعالى سائلين منه تعالى لنا ولكم أن يوفقنا إلى حسن القصد، وصحة الفهم، وصواب القول، وسداد العمل"[79]. وما يمكن أن يستفاد من هذا الكلام هو أنّ المفسّر لا يكون مفسّراً إلاَّ إذا توافرت فيه أربع شروط علمية وعملية، وهي: صحّة الفهم، وحسن القصد، وصواب القول، وسداد العمل.

10- ومن خصائص تفسير ابن باديس: عفّة قلمه، ورقّة أسلوبه، وأدبه الجمّ في الرّدّ على المخالفين بخطاب عام لا تعيين، وذلك باستخدام أسلوب التلميح دون

---

[79] المرجع نفسه، ص 42.

التصريح في نصحه وتبيينه للحق في توجيه المسلمين – وهذا تماماً مثل ما كان يفعله النبيّ ﷺ مع أصحابه[80]–، اللهمّ إلاَّ ما يستثنى في بعض الحالات الطارئة، وذلك مثل ردّه على الشيخ المولود الحافظي[81] في مقال نشره ردّاً على ابن باديس في مسألة: أيّ العبادات أكمل، العبادة مع رجاء الثواب وخوف العقاب؟ أم العبادة دونهما؟

وهنا جاء ردّ ابن باديس بأدلة الكتاب والسنة وأقوال السلف على زعم المولود الحافظي بأن العبادة دون رجاء ثواب ولا خوف عقاب هي أكمل العبادات، فقام بتفنيد أدلة خصمه التي لا تستند إلى الكتاب، ناهيك عن السنة الصحيحة.

في الأخير خلص ابن باديس إلى أنّ العبادة المجرّدة من الخوف والرجاء منافية لصدق مشاهدة الجلال والجمال، مخالفة لعبادة الأنبياء والمرسلين، وعباد الله الصالحين. وأنّه لم يرد فيها نص صريح من كتاب أو سنة، مثل واحد من الأدلة المتقدمة المتكاثرة[82].

يمكن القول بأنّ هذه الخصائص التي تميّز بها تفسير ابن باديس على غيره من التفاسير قد دفعت بالباحثين إلى الالتفاف حول تفسيره دراسةً وتحليلاً، كما دفعت بالمفكرين والمصلحين إلى تصنيف تفسيره ضمن التفاسير الإصلاحية التي أسهمت في إحداث التجديد والتغيير في مستهلّ القرن العشرين.

---

[80] وهذا مثل أخرجه البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبيّ صلى الله عليه وسلّم: **"ما بال أقوامٍ، يرفعون أبصارهم إلى السّماء في صلاتهم!"**. راجع: البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الأذان: باب رفع البصر إلى السّماء في الصّلاة، مج1، ص 177.

[81] وقد سجّل ابن باديس اسم هذا الشيخ في تفسيره لقوله تعالى في سورة الفرقان: **(وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (66))**.

[82] انظر: ابن باديس، **في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، ص 202- 216.

الخاتمة:

هكذا إذا يخلص الباحث في هذه الدراسة إلى أنّ ابن باديس قد خرج عن عادة السلف والخلف في تفسيرهم للقرآن، فهو لا يشرح الآية فحسب وإنما يحوّلها إلى برنامج عمل، يستخدم في ذلك كل معارفه اللغوية والشرعية ومعارفه الأخرى بعلم النفس وعلم الاجتماع والسياسة، أي يشرح القرآن عن طريق توضيح الإجراءات العملية الممكنة لتلاوته، في الظّرف النفسي الاجتماعي الذي يمرّ به الإنسان الجزائري. إنّه شرح يفحص المجتمع ليعرف إمكانية الإطلاق والتقييد لآيات القرآن.